مراسلات متبادلة بين الشريف غالب بن مساعد وبين نابليون بونابرت ورجال حَمْلَتِهِ على الشرق (إضافات)

د. محمد زكريا عناني
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الملك عبد العزيز ـ جدة

هذه إضافات على موضوع نشرناه بـ «الدارة» منذ سنين، عرضنا فيه لمجموعة من الوثائق العربية والفرنسية محورها هذه الرسائل التي بعث بها بونابرت – إبان حملته على الشرق – هو ورجالات جيشه إلى الشريف غالب بن مساعد، حاكم الحجاز آنذاك، وقلنا في صدر هذا الحديث القديم:

«مهما اختلفت الأحكام حول الحملة الفرنسية على مصر والشرق (١٢١٣-١٢١٦هـ، ١٧٩٨-١٨٠١م) فالذي لا ريب فيه أن هذه الحملة أثرت تأثيرا في الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية في الشرق، وكانت عاملا فعالا في القضاء على نفوذ المماليك، وفتح المجال أمام محمد علي لكي يؤسس دولة مصر الحديثة.

ومهما قست آراء المؤرخين وهي تتناول دور الشريف غالب بن مساعد، فالثابت أن الرجل كان في عصره قوة لا يستهان بها...[1]، ونقلنا ماجاء عنه في عجائب الآثار في حوادث سنة ١٢١٣هـ:

«ومات الأجل المكرم الشريف غالب بسلانيك، وهو المنفصل عن عمارة مكة وجدة والمدينة، وما انضاف إلى ذلك من بلاد الحجاز، فكانت إمارته نحوا من سبع

وعشرين سنة، فإنه تولى بعد الشريف سرور، في سنة ثلاث ومائتين وألف، وكان من دهاة العالم. وأخباره ومناقبه تحتاج إلى مجلدين، ولم يزل حتى سلط الله عليه بأفاعيله هذا الباشا (يقصد محمد علي) فلم يزل يخادعه حتى تمكن منه، وقبض عليه، وأرسله إلى بلدة سلانيك، وخرج من سلطته وسيادته إلى بلاد الغربة ونهبت أمواله، ومات أولاده وجواريه، ثم مات هو في هذه السنة»[٢].

وتضمنت نشرتنا السابقة ثماني رسائل فرنسية وعربية استقيناها من مصادر متنوعة هي:

- مجلد محفوظ بالمكتبة الوطنية بباريس يحمل عنوان: Recueil des arrêtés et Proclamatiuons de lautorité Française en Egypte pendant l'occupation «مجموعة القرارات والبيانات التي أصدرتها السلطة الفرنسية في مصر في أثناء الحملة الفرنسية».
- عجائب الآثار في التراجم والأخبار للجبرتي.
- إفادة الأنام لعبدالله غازي.
- أعمال نابليون بونابرت Oeuvres de Napoleon Bonaparte
- روسو: كليبر ومينو في مصر منذ رحيل بونابرت F. Rousseau: Kleber et Menou en Egypte depuis le départ de Bonaparte

الرسالة الأولى

وترد في نصها الفرنسي ضمن «أعمال نابليون»، وقد كتبت في ٢٥ أغسطس سنة ١٧٩٨م (ربيع الأول من سنة ١٢١٣هـ) فإذا علمنا أن الفرنسين نزلوا غرب الإسكندرية في ١٨ محرم سنة ١٢١٣هـ (٣ يوليو ١٧٩٨م)، وأن نابليون انتصر على المماليك في واقعة إمبابة (معركة الأهرام) في ٧ صفر ١٢١٣هـ (٢١ يوليو ١٧٩٨م) عرفنا أن نابليون بونابرت بعث برسالته هذه للشريف غالب بعد دخوله القاهرة بنحو شهر من الزمان، وفي هذا دليل على مدى الأهمية التي أولاها لهذا الأمر، فقد كانت تحيط به متاعب شتى، منها - على سبيل المثال - تحطم أسطوله في

موقعة «أبوقير» (أول أغسطس سنة ١٧٩٨م) واشتعال المقاومة في أنحاء متعددة، ورغبته في إحداث تنظيمات إدارية عاجلة يسير بها شؤون مصر:

ترجمة نصر الرسالة:

«القاهرة، في ٨ فريكتيدور من العام ٦ (٢٥ أغسطس ١٧٩٨م).

إلى شريف مكة

إنني إذ أخطركم بدخول الجيش الفرنسي مصر أعتقد أنه من الواجب أن أطمئنكم على عزمي الوطيد على أن أحمي بكل السبل رحلة الحجيج إلى مكة، وستظل المساجد وكل الأوقاف التي لمكة والمدينة في مصر في حوزتهما كما كانت في الماضي. إننا أصدقاء للمسلمين ولعقيدة الرسول، ونحن راغبون في القيام بكل ما من شأنه أن يسركم ويكون في صالح الدين.

وإني لأرغب في أن تعلنوا في كل مكان أن قافلة الحج لن تعاني من أي توقف، ولن تخشى شيئا من الأعراب.

بونابرت»

★★★

الرسالة الثانية

وتأتي هذه الرسالة بعد يومين فحسب من تاريخ كتابة الرسالة السابقة، وتحمل تفصيلات أكثر عن طبيعة العلاقات بين الشريف غالب وبونابرت:

ترجمة نص الرسالة:

«القاهرة في ١٠ فريكتيدور من العام ٦ (٢٧ أغسطس ١٧٩٨م)

إليه نفسه

«إنني أبادر بأن أعرفكم بوصولي على رأس الجيش الفرنسي للقاهرة، وبالإجراءات التي اتخذتها للحفاظ على ما للمساجد المقدسة في مكة والمدينة من الدخول التي كان مستوجبة لها.

وسيبين لكم، عن طريق الرسائل التي ستصل إليكم من الديوان ومن مختلف التجار في هذا البلد، مدى الرعاية التي أكرسها لرعاية العلماء والأشراف وكل رجال الشريعة. وسترون كذلك أني عينت كذلك مصطفى بك(١١). كتخدا سيد أبي بكر باشا وحاكم القاهرة، وسيقوم بمرافقة الموكب مع قوة تكفل لها الحماية من غارات الأعراب.

وإني لجد راغب في أنكم، عن طريق ردكم، تعرفوني عما إذا كنتم تودون أن تقوم فرق تابعة لي بحماية القافلة، أو يكتفي بفيلق خيالة من أهل البلاد، ولكن في جميع الأحوال بلغوا جميع التجار والمؤمنين بأنه لا يوجد للمسلمين من هو أكثر مني صداقة لهم، وكذلك للأشراف وكل الذين يكرسون وقتهم وطاقاتهم لتعليم الشعب، فليس لهم أشد غيرة على حمايتهم، وبأن التجارة لن تكون فحسب بمنأى عن الخطر، بل ستكفل لها حماية خاصة. وبانتظار ردكم مع رجوع البريد.

لتبلغني كذلك عن الضرورات التي تحتاجون اليها من قمح أو أرز وسأهتم بأن ترسل كلها إليكم.

بونابرت »

★★★

الرسالة الثالثة

وهذه الرسالة بعث بها الشريف غالب بن مساعد شريف مكة إلى نابليون بونابرت. ولا تحمل الرسالة تاريخا، ولكن محتواها يدل على أنه من الممكن اعتبارها بمثابة رد على الرسالة السابقة.

والنسخة التي نقدم نصاً لها مطبوعة بالقاهرة، بالمطبعة الوطنية، أي بتلك المطبعة العربية التي حملها الفرنسيون معهم. ولعل نسخاً من هذه الرسالة، بحجمها هذا الذي طبعت به (٢١ × ٢٩سم) أو بحجم أكبر(١٢)، علقت في بعض المواضع الرئيسة بالقاهرة، ليطلع عليها الأهالي ويظهر الفرنسيون على ضوئها، في مظهر الحريصين على إقامة الشعائر الدينية، ويبين أنهم على علاقات طيبة مع شريف مكة.

وطبع في أعلى الرسالة بالحرف الغليظ.

Lettre du Cherif de la Mekke au Général en chef Bonaparte

(خطاب من شريف مكة إلى القائد العام بونابرت)

وفي ذيل الوثيقة:

Au Kaire, de l'imprémerie Nationale

(القاهرة، بالمطبعة الوطنية).

نص الرسالة (١٣):

«بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين»

محل الخاتم ومكتوب في وسطه عبده غالب مساعد ١٢١٣ من الشريف غالب بن مساعد شريف مكة المشرفة، إلى أمير الجيوش الفرانساوية بونابارته (!) ساري عسكر الكبير في الأقاليم المصرية، يجري الله الخير على يديه.

بعد السلام عليكم، فقد وصل كتابكم، وفهمنا لحامل ماحواه خطابكم، وما ذكر عن إلباسكم لمصطفى أغا كتخدا والي مصر إمارة حجاج المسلمين فهو عين الصواب، وذكرتوا بأنكم عازمين على ارسال حجاج المسلمين إلى بيت رب العالمين، بطلبا أمنيتهم من طرفنا، فلا مانع لهم، ولهم أمان الله من جميع المخاوف، ولا صاد لهم عن بيت الله وزيارة رسول الله، ولا جعل الله الكعبة البيت الحرام إلا لأداء فريضة حج الإسلام فيجون كعادتهم يحجون وهو آمنون، وما ذكرتوا عن تمشيت بن التجار، فلا يخفاكم أن المزكورين (!) غير آمنين الغوايل التي راواها (!) في الزمان السابق. فإذا ردتوا ذلك أرسلوا لهم ما يومن خواطرهم وبينوا لهم ما تأخذوه من العشور على بنيانهم وأموالهم فإذا فعلتوا فهم يصلون إليكم، وبخلاف ذلك لا يأمنون.

هذا ما عنى لنا به التسطير، وما ذكرتوا من تعرض العربان للحجاج المسلمين فلا يصير ذلك بحول الله وقدرته وهمتكم العالية.

والسلام على من اتبع الهدى»

★★★

الرسالة الرابعة

وترد ضمن «أعمال نابليون»، وهي الرسالة الوحيدة التي توجه باسم «سلطان مكة» لا إلى «شريف مكة»، ولسنا نملك النص العربي منها حتى يمكن، على ضوئه، الجزم بدلالة هذا التغيير، والأبعاد السياسية التي تنطوي وراء مثل هذا التعبير.

ترجمة نص الرسالة:

«القاهرة، في ٦ بلو قواز من العام ٧ (٢٥ يناير ١٧٩٩)

إلى سلطان مكة

لقد تسلمت الرسالة التي كتبتموها إلي، وفهمت محتواها، وأرسل لكم اللائحة التي قمت بوضعها لجمرك السويس، وفي عزمي أن يتم تنفيذها بدقة.

ولا يخالجني الشك في أن تجار الحجاز سيلحظون بامتنان مدى التناقص الذي طرأ على الرسوم الجمركية، وذلك من أجل الصالح العام للتجارة، وتستطيع أن تطمئنهم بأنهم سيحظون هنا بموفور الحماية.

وفي جميع الحالات التي تحتاج فيها لشيء من مصر، ما عليك إلا أن تعرفني، وسيكون مدعاة لسروري أن أعبر لكم عن دلائل تقديري.

بونابرت»

★★★

الرسالة الخامسة

وهي إحدى الرسائل القليلة التي وصل إلينا نصها بالعربي، ولم ترسل إلى نابليون بونابرت، بل إلى بوسييلج Poussielgue أحد كبار رجال الاقتصاد الذين صاحبوا الحملة، حيث أصبح «مراقبا لنفقات الجيش، وعهد إليه نابليون بإدارة الشؤون المالية، وكان يثني عليه، لكنه غضب عليه بعد عودته إلى فرنسا لما أطلع على رسائله إلى حكومة الديركتوار انتقد فيها سياسته. ولما عاد إلى فرنسا أهمله نابليون(١٤).

ويرد اسمه في هذا النص على أنه «بوسيلك، مدير الحدود العامة بمصر»، والنص نفسه يورده الجبرتي في عجائب الآثار، ضمن أخبار سنة ١٢١٣، مسبوقا بقوله:

«وفيه حضر إلى السويس تسعة داوات بها بن وبهار وبضائع تجارية، وفيها لشريف مكة نحو خمسمائة فرق بن، وكانت الإنجليز منعتهم الحضور، فكاتبهم الشريف فأطلقوهم بعد أن حددوا عليهم أياما مسافة التنقيل والشحنة، وأخذوا منهم عشوراء. وسامح الفرنسيس ابن الشريف من العشور ؛لأنه أرسل لهم مكاتبة بسبب ذلك وهدية قبل وصول المراكب إلى السويس بنحو عشرين يوما، طبعوا صورتها في أوراق وألصقوها بالأسواق، وهي خطاب لبوسيلك، وصورته، من الشريف غالب بن مساعد، شريف مكة المشرفة إلى عين أعيانه....» إلخ.

والنص الذي ألصق بالأسواق طبع على ورق كبير الحجم (٤٠ × ٢٩سم)، وكله بالعربية، باستثناء الشعار الذي في أعلا المنشور، والذي يتضمن بالفرنسية: «الجمهورية الفرنسية».

ويتضمن المنشور بعض عبارات دعائية، توضح كيف أراد الفرنسيون أن يستغلوا صلاتهم بالشريف غالب – التي كانت في جوهرها صلات تجارية – لاجتذاب الرأي العام إليهم، وهذه العبارات نصها:

«صورة مكتوب حضر من مكة المعظمة خطابا من سلطان مكة مولانا الشريف غالب، أرسله لمصر إلى الدستور المكرم والمشير المنحضم (كذا) الوزير بوسيلك مدير الحدود العامة بمصر حالا زاده الله جلالا واقبالا دل مضمونه، وأوضح مكنونه على صحة مصادقة الشريف للدولة الفرنساوية، ومزيد مودته لهم مع صدق النية، بخلاف ما يظنه سفها الرعية، وعرفنا من ذلك أن حضور الجماعة قطاع الطريق على القصير من غير اطلاعه، وبغير إذنه، فجزاهم ما حل بهم حيث تخطفهم الطير، وقد هلكوا في الصعيد، بعسكر الفرنساوية، أهل الشجاعة والمحاربت (!) القوية، الأسدية، وحاصل مكتوب الشريف للوزير لأجل ما يعتبر به الكبير والصغير، ويسلموا إلى مولاهم في سائر المقادير، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، وهو اللطيف الخبير».

نص الرسالة:

«بيان لفظ المكتوب

من الشريف غالب بن مساعد شريف مكة المشرفة إلى عين أعيانه وعمدة إخوانه الوزير الشهير(١٥) بوسيلك(١٦)، مدير أمور جمهور الفرنساوية، ممهد بنيان السياسة بسداد همه(١٧) الوفية، وبعد

فإنه وصل إلينا كتابك، وفهمنا كامل ماحواه خطابك، مما ذكرت من صول قنجتنا. وأنك أرسلت هجانا برفع العشور عن البن، وبذلت الهمة في شأن التصرف في نفاذ بيعه، فهذا ما نؤمله من حميد الحركات، ووفاء المصادقات، فأوجب ذلك عندنا وافر السرور، ومزيد الود والحبور(١٨)، وتأملنا في كتابك، فوجدنا من صدق مقاله ما أوجب تمسكنا بوثاق الاعتماد على تموه غياهب الشك في كل مراد(١٩).

وواجب الآن علينا تكوين أسباب المصادقة والمبادرة فيما ينظم مهمات تسليك الطرق بيننا وبينكم عن الوعث وزوال المناكرة، وشهلنا الآن إلى طرفكم خمسة مراكب مشحونة من نفس بندرنا جدة المعمورة في هذا الأوان، ولا أمكن لنا خروج هذا المقدار إلا بأشد علاج(٢٠)، مع سلب اطمينان التجار لأن كثرة أكاذيب الأخبار أوجبت لديهم(٢١) مزيد الارتياب والأعذار بحيث ما بيننا وبينكم إلا العربان المختلفة رواياتهم على ممر الأزمان، وأما نحن فقد جاتنا منكم قبل هذا المكاتب التي أوجبت عندنا من خطاب كتبكم زوال تلك الظنون والأكاذيب فخاطرنا مستقر بالطمأنينة من قبلكم لما ثبت عندنا من ألفاظ كتبكم.

والمطلوب في حال وصول كتابنا إليكم إرسال عسكر من لديكم إلى بندر السويس لأجل حفظ أموال الناس ويصلوا بالأبنان إلى مصر، ويبيعوا(٢٢) التجار ويزول وقف الأسباب والباس، وتهتموا في رجوعهم كذلك قبل باوان ليكون ذلك سببا في كثرة وفود الأبنان، وعند رجوعهم بعد المبيع من مصر إلى السويس كذلك تصحبوهم بالعسكر من طرفكم الوثيق ليكونوا محافظين لهم من شرور الطريق؛ لأن هذه المرة ما أرسل إليكم هذا المقدار إلا تجربة واستخبار من أعيان التجار، وعند مشاهدة الإكرام والاحتفال بهم في كل حال يرسلون إليكم نافيس أموالهم ويهرعون بالجلب لطرفكم، ويزول الريب عن قلوبهم.

ونـرجـو(!) الله بهمتنا تسلك الطـرقـات، وتنجح المطـالب وتحصل الميراث(٢٣) بأحسن مما كـانت من الأمان، وأعظم ممـا سبق في غابـر الأزمان، ويكثـر بحول الله الوارد إليكم من الأسبـاب الحجازية، وكـذلك لنا بن في المراكب، فما مولنـا منكم القا النظر على خدامنا، وبذل الهمة على ما هو طـرفنا. وأنتم كذلك لكم عندنا مزيد الإكرام في كل مرام.

ولا يخفـاك أنه ورد علينـا قبل بأيام كتـب من طرف أمير العسكـر الفرنسـاوي محبنا بونابارته فما كان لنا منها فتـأملناه، وصار إليه الجواب توصله إليه، وما كان منهـا معـول(٢٤) في إرسـالـه علينـا إلى نـواحي الهنـد وابن حيـدر(٢٥) وإمـام مسكت(٢٦) ووكيلكم الذي في المخـا(٢٧) فجميعها صدرنـاها(٢٨) من طـرفنا مع من نعتمده إلى أربابها.

وإن شاء الله عن قريب يأتيكم الجواب(٢٩).

تحريرا في ١٨ شهر ذي القعدة سنة ١٢١٣»

ويتلوه، في نفس المنشور:

«وقد وصل هـذا الجواب لمصر(٣٠) في ١٤ شهر الحجـة(!) فيكون مدة وصـوله من مكة المشرفـة لمصر ثمانية وعشرين يوما، وبعـد وصول هذا الكتاب بسبعـة أيام وصلت مكاتيب البشـارة الخاص والعام بدخول إحدى عشر داوا إلى بنـدر السويس بسلام، فحصل بهذا الخبر الخزي للكذابين وبطل كلام المجـرمين فالزموا الأدب مع الله وارضوا بأحكام الله والسلام عليكم ورحمة الله.

طبع في مطبعة الفرنساوية العربية بمصر المحروسة».

★★★

الرسالة السادسة

وهذه الرسالة ورد نصها في مخطوطـة كتاب «إفادة الأنام» – ولم نعثر بعد عليه – ونقلناها عن كتاب الأستاذ أحمد السباعي «تاريخ مكة» الذي قدم لها بقوله:

«نابليون بونابرت(!) يكتب لغالب:

وعلى أثر استقرار الفرنسيين في مصر كتب قائدهم الأعلى نابليون لونابرت(!) يعرض على الشريف غالب في مكة بعض الاتفاقات التجارية، وينذره إذا حاول قطعها، فكتب إليه الشريف غالب الخطاب التالي»:

وبعد أن أورد نص الرسالة أضاف «ملاحظة» هي:

«كان عنوان غلاف الكتاب:

(عين أعيانه وعمدة أخدانه بونابرته، أمير الجمهور الفرنساوي بمصر القاهرة حالا ٨٦٤٢(؟) وكان الختم مكتوبا في وسطه:

(عبده غالب بن مساعد سنة ١٢١٣)

وكتب في أعلا الخطاب (إسنادي إلى الله)

وفي أسفله (اعتمادي على الله)

وفي إحدى الجانبين (مرادي رضا الله)

وفي الجانب الآخر (اعتقادي في الله)

نص الرسالة:

«من الشريف غالب بن مساعد شريف مكة المشرفة، إلى قدوة أعيان (أقرانه) الدولة الفرنساوية أو عمدة أركان إخوانه المشهور بسداد همته الوافية بونابارته، سر عسكر ومقدم كبرائهم في كل مصدر، وبعد

فداعي التحرير وموجب التسطير وصول كتابك وإحاطة علمنا لما حواه خطابك وما ذكرت من وصول كتبنا وتصفح مضمونها، وإرسال القول من طرفكم بما يوجب تبيان حدود رسومات أموال التجار في البلاد المصرية، وجريان سماحنا لخمسمائة فرق إلى آخر ما شرحتموه من الكتاب لصريح وثاقه صدق الاعتماد في كل مصدر من جهاتنا الحرمية، ومطلوب منا إيصال الكتب المرسلة على يدنا لمحلنا، أحدها لولد حيدر تيبو سلطان، والثاني لإمام مسكت والثالث لوكيلهم بالمخا، فقد وصلت إلينا وأرسلناها بيد معتمد من طرفنا لأصحابها طبق المرام، وإن شاء الله عن قريب يجيئكم الجواب، وما كان من همتنا في جلب التجار إلى الديار المصرية،

واعتمدنا لخطكم وأكيد قولكم، فنرجو الله ما نعتمد خلافه، وقد كان تجار بندرنا المعمور في روع من الأكاذيب المختلقة على أموالهم وصدورها لطرفكم وحين ورد منكم هذا القول الأكيد كافة تجارنا في أسباب الجلب إليكم، وتعهد لهم كامل ما توهمت به ضمائرهم من ضمان الأمان على أموالهم، وإنما كان الانتظار منا لوفود من جهتنا ورسولنا المصدر إليكم.

فلما كان اليوم السابع من شهرنا هذا وصل المذكور إلينا وبه كتاب وكيلك المعتمد الوزير برسيلك (كذا) المعلن بمزيد الالتفات لوفادنا إليه وهمته في أمور من صلاتنا من البن وغيره وهي خمسة مراكب مشحونة من طرف تجارنا وفيها مأمور هو مسطور أعلاها باسمنا فهو لنا وصحبتهم منحتنا ومراسلينا بالسطور، فالمطلوب عند وصولهم إلى السويس أن ترسلوا من طرفكم عسكر يحافظون على الأبنان إلى أن تصلكم إلى مصر، ويبيعونها، فعند إعادتها بأثمانها كذلك تشيعوهم بالعساكر إلى أن يدخلوا سفائنهم، حرصا عليهم من خطر الطريق، فأننا ما أمكن تأمين التجار على هذا المقدار إلا بأشد علاج وما صدر هذا القدر إلا بصدد التجربة من شدة ما تأكد عليهم لديهم من توهم الأكاذيب المتناثرة، لأنه ما بيننا وبينكم إلا العربان، فإذا شاهد التجار مزيد الاعتناء بأموالهم، ومحافظاتها من مخاطرات الأسفار والاحتفال بإكرامهم هرعو بالجلب إلى مصر في كل آن، ونرجو بهمتنا أن نسلك الطرقات وتنجح الميرات بأحسن ما كان من الأمان، ويكثر الوارد إليكم من الأسباب الحجازية، لا سيمان عند وجدان صدق مقالكم تتكون أسباب صداقتكم فالآن مأمولنا منكم إلقاء النظر على ما هو لنا من البن حسب ما هو مرقوم اسمنا في ظهور (فروقنا) والالتفات لخدامنا، وكذلك لا يخفاكم أن لنا عوائد ومرتبات في مصر، مع سماح الخمسمائة الفرق دراهم نقدية. وهنا بيان ما هو لنا بالديوان المالي في مصر، الواصلة إلينا صحبة الحاج مع كاتب الصرة وصيرفها:

عن الصرة الرومية	٥٤٠٠٠٠
ثمن سرس وشطرات	١٧٠٩١٧
معتاد بني حسين وبني تراب	٤٨٧١٧
عن أشراف بني تراب بدفتر متقاعد	١٩٥١٢

عن مرتب وقف الحشيشة الكبرى ١٢٥٣٢٥

عن وقف المحمدية بالثلث بدفتر متقاعد ٨٣٣٣٣

حوالة كاتب الحرم بمكة من أربطة ١٧٥٨١١

عن صرة شريف مكة إنماء الدولة العلية ١٠٠٠٠٠٠

منها دواوين ٢١٦٣٦٧٩

ولنا في وقف الجامكية المستجدة يسلمها لنا أمين الحاج دواوين ٥٠٨٥٠٠

عنها ريال فرانسة ٥٦٥٠

حرر في ١٨ شهر ذي القعدة ١٢١٣».

***

الرسالة السابعة

وترد ضمن «أعمال نابليون بونابرت» وكتبت في ٣٠ من يونية ١٧٩٩ أي قبيل رحيل نابليون بأقل من شهرين (إذ إنه ارتحل في ٢٢ من أغسطس إلى فرنسا، متخفيا).

ترجمة نص الرسالة:

«القاهرة في ١٢ ميسيدورمن العام ٧(٣٠يونيه ١٧٩٩).

إلى شريف مكة

بسم الله الرحمن الرحيم ،لا إله إلا الله ،محمد رسول الله ، لقد تسلمت رسالتكم، وفهمت محتواها ،وقد أصدرت أوامري بحيث يعمل كل ما من شأنه أن يقنعكم بمدى الود والتقدير الذي أحمله لكم .

ونأمل أنكم في الموسم القادم تقومون بإرسال عدد كبير من السفن المحملة بالبن وبضائع الهند ، وسيكفل تأمين هذه السفن .

وإني لأعرب لكم عن شكري لقيامكم بإرسال ما بعثت من رسائل للهند والى فرنسا .أوصلوا هذه الرسالة كذلك،ووافونا بالرد .

وثقوا في التقدير الذي أكنه لكم ،وفي الاعتبار الذي أحمله لصداقتكم

بونابرت »

ويرد بعدها في نفس المصدر نص يتصل بالشريف غالب هو :

«القاهرة في ١٢ميسيدور من العام ٧(٣٠يونية ١٧٩٩) .

إلى قومندان «ايل دي فرانس (٣١)

أرجـو أيها المواطن القومنـدان ،أن تقومـوا بدفع مبلغ ٩٤٠٠٠فـرنك إلى شريف مكة، وهو المبلغ الـذي سيقوم أمين الصرف بالجيش بسحبه ،بمـوجب ثلاث رسائل تحويل على أمين الصرف في ايل دي فـرانس ،كما ستقو م الخزانـة الوطنيـة باتخاذ اللازم .

«وقد اعتقدت أنه من الواجب أن استعمل هذه الطريقة لكي يكون لنا قناة موثوق بها لكي نتراسل معكم على الـرغم من الطـرادات [الإنجليزيـة]التي تعيث في البحـر الأحمر فسادا.

ولكم تحياتي

بونابرت »

★★★

الرسالة الثامنة

ويرد نصها الفرنسي في كتاب فرانسـوا روسو الذي يحمل عنوان «كليبس ومنو» ويضم الوثائق التي تتعلق بالحملة في ظل خليفتي بونابرت في مصر

وتتميز هذه الرسـالة بمدى غلبة روح الملق عليه ،والرغبـة الشديدة في التأثير على الشريف غالب ؛ لأن الجنرال منو كاتب هذه الـرسالة كان ينتهج سياسة استعمارية ترمي الى محاولة البقـاء في مصر ،على العكس من نهج سلفه كليبر، الذي أدرك أن من الخير تصفية الحملة والرحيل وفقا لشروط مشرفة .

ترجمة نص الرسالة:

«من منو إلى شريف مكة

(نقلا من مينيتور يونيفرس، بتاريخ ١٥ نيفوز من العام ٩) ٩ فريمير من العام ٩ (٣٠ نوفمبر ١٨٠٠)

بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، محمد رسول الله

من عبدالله جاك منو، القائد العام للجيش الفرنسي (الموجود) حاليا في مصر، ممثلا فيها حكومة الجمهورية الفرنسية.

إلى الشهير ذائع الصيت ،الأعظم بين الأعاظم ،خليفة رسول الله ، المفعم بالعقل والحكمة والقوة ، المنتصر على الدوام ،الأمير غالب ،الشريف العظيم على المدينتين المقدستين ،المهيمن على أجمل منطقة في شبه الجزيرة العربية .

أيها الأمير الشهير ،الصديق :

بعد أن استعلمت عن صحتكم، وتمنيت لكم كل السعادة التي تستحقونها، والتي تصبون لها، أبادر بأن أعلمكم بأني عينت قائدا عاما على الجيش الفرنسي (المقيم) الآن في مصر، بعد الاغتيال الرهيب الذي أودى بشخص سلفي صديقكم القائد العام كليبر.

إن صديقكم القديم بونابرت، القنصل الأول للجمهورية الفرنسية وأشهر محاربي أوربا، هو الذي عينني في مكانه، وإني لأهنىء نفسي إذ أتاح لي إمكانية التراسل مع من هو الأكثر قداسة من بين جميع الأمراء الذين يتبعون العقيدة الحقة، والذين يعبدون الله ويوقرون نبيه.

أيها الأمير الشهير:

لقد كلفني بونابرت بأن أجدد معكم كل مواثيق الصداقة، ومن ثم أبادر بأن أعرفكم بأن رعاياكم يستطيعون الحضور للسويس دون أي خوف، ومن الآن فصاعداً لن يلحق بالتجار إهانة أو تنكيد، وقد ألغيت كل القوانين القديمة لكيما لا أبقى إلا على قانون واحد مطلق، ولو أن فردا فرنسيا أو أي موظف آخر في جمرك

تجرأ أن يأخذ مثقال ذرة واحدة(٣٢) أكثر مما حددت، فإنه سيدفع حياته إذ ذاك ثمناً لها، وقد فعلت ذلك مراعاة لكم، أيها الأمير الشهير.

ولقد كنت أريد أن أرسل لكم هذه السنة، كما كان ذلك في السابق، قافلة الحجيج، التي تضم من كل الأمم لأجل زيارة المدينتين المقدستين، وكنت أريد أن أرسل لكم الكسوة لتغطية الكعبة المقدسة، لكن ظروف الحرب لم تمكن من ذلك، وأرجو في العام المقبل أن أكون أحسن حظا، وسأنصب كأمير للحج مسلما يكون حريا بمهمة على هذا القدر من التشريف، وسأقوم، في النهاية، بكل ما من شأنه أن يبرهن لكم، أيها الأمير الشهير على مقدار رغبة الجمهورية الفرنسية في أن تكون على وفاق معكم، وإنني لأعتبر نفسي سعيدا إذ أكون لسان حالها، حيث أنها كلفتني بأن أقدم لكم التوكيدات الوطيدة لتقديرها العميق.

وأرجو الله ورسوله أن ينعم عليكم بعمر مديد، وبرخاء غير مقطوع، وانتصارات بلا عدد على أعدائكم.

ملحوظة: أرسل لكم أيها الأمير الشهير التعريفة الجمركية التي نفذتها في كل أنحاء مصر، وسترون أن الرسوم الجمركية أصبحت أقل قدرا في السويس مما كانت عليه في الماضي».

ونعود اليوم لنكمل مسيرة التنقيب في الموضوع ذاته، استنادا إلى مواد جديدة توافرت وقوامها:

● مجلة Courrier de l'Egypte

وهي النشرة الإخبارية التي أصدرتها الحملة، وكانت تعضدها نشرة علمية أخرى تحمل عنوان العشرية المصرية La Decade Egyptienne.

وكان هناك مشروع لإصدار نشرة عربية تحمل اسم: التنبيه، اختلفت الآراء حولها، وقد رجحنا – في بحث مطول – أنها لم تر النور قط(٣).

وصدرت ترجمة عربية لكل أعداد الـ «كوربيه دى ليجبت» – بريد مصر – شغلت المجلد الأول من كتاب «صحف بونابرت في مصر» لصلاح الدين البستاني(٤).

● الإسلام وبونابرت L'Islam et Bonaparte

ويضم كل ما يتصل بموضوع علاقات بونابرت بالعالم الإسلامي.

Histoire Scientifique et Militaire de l'Expedition Française en Egypte

التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية على مصر (الجزء الرابع بقلم لوى ريبو Louis Reybaud)

Contes du Cheykh et Mehdi

حكايات الشيخ المهدي، بقلم العالم الفرنسي الكبير جان مارسل Jean Marcel

والكتاب يتضمن حكايات فريدة في بابها، نسب مارسل تأليفها للشيخ محمد المهدي (الكبير) وترجمها في ثلاثة مجلدات، مع تصدير مستفيض عن الشيخ المهدي[٥]، إذا ما أضفنا هذه المصادر إلى القائمة التي اعتمدنا عليها في القسم الأول جاز لنا أن نقول بأن هذه الوثائق المنشورة تمثل مادة صالحة لدراسة مسهبة حول جانب تاريخي يحفه الغموض والإثارة، ويفيض بالحيوية والدلالة.

الوثيقة الأولى

وتتضمن نص رسالة بعث بها بونابرت إلى الشريف غالب بن مساعد والأصل العربي للرسالة مفقود، واحتوى العدد الرابع والعشرون من صحيفة «الكوريه دى ليجبت» على النص الفرنسي فحسب.

ويمكن مقارنة مادة الرسالة بالنصين الأول والثاني المنشورين في القسم الأول (بمجلة الدارة) فهناك نقاط مشتركة بينهما جميعا تتمثل في حرص بونابرت على إبلاغ الشريف غالب بنبأ وصول الحملة، ومحاولة التوكيد على هويتها للمؤازرة للإسلام والمسلمين، والتي تزعم في الوقت ذاته بأن الحملة هدفها القضاء على نفوذ المماليك فحسب.

وترجمة الرسالة:

«من القائد العام إلى شريف مكة

بسم الله الرحمن الرحيم

أعرفك بوصولي إلى القاهرة على رأس الجيش الفرنسي، وسترون من واقع الخطابات التي يحررها لكم الديوان وأشهر تجار القاهرة أني عينت أميرا للحج

مصطفى بك كخيا أبو بكر باشا والي مصر، سوف يصحب المحمل ومعه القوات اللازمة لتأمين سلامته من هجمات الأعراب عليها.

أخبروا جميع التجار المؤمنين أنه ليس للمسلمين أصدقاء أوفى منا، وليعلم أيضا جميع الأشراف وكل من يقضون أوقاتهم ولا يدخرون وسعا في تعليم الشعب والعمل على نشر تعاليم القرآن أنه ليس لهم حماة أكثر منا إخلاصا.

طمئنوا جميع التجار بأن التجارة ليست فقط في مأمن ممن يحاولون النيل منها بل سنحميها أيضا، سأحافظ دائما على مصالح الكعبة المشرفة التي أعتبر حمايتي لها شرفا ومجدا لي.

وتفضلوا بقبول احترامي وعظيم تقديري لكم»(٦).

الوثيقة الثانية

وتتضمن رد الشريف غالب على رسالة بونابرت السابقة، وهو رد يتكىء على إبراز الجانب التجاري والاقتصادي قبل أي اعتبار آخر، والنص العربي للرسالة مفقود، وهناك ترجمة رسمية له وردت في صدر العدد الرابع والعشرين من «الكوربيه دى ليجبت» كما ورد هذا النص نفسه في وثائق «الإسلام وبونابرت» ومحتوى الوثيقة يقول:

«بمشيئة الله يصل هذا الخطاب ويسلم للأمير بونابرت صديق الكعبة فليوجهه المولى إلى سبيله

بسم الله الرحمن الرحيم، والسلام على سيدنا محمد آخر النبين وسيد المرسلين من رب العالمين وصلوات تسليم على آله وعلى من اتبع سنته.

يلي ذلك الخاتم الكبير للشريف حيث يقرأ:

عبده: غالب بن مساعد، سنة ١٢٠٣هـ (تاريخ توليه الإمارة)

من الشريف غالب بن مساعد أمير مكة، إلى الأمير بونابرت حامي حمى العلماء وصديق الكعبة المشرفة.

بعد أن أعرب لكم عن سلامي ينبغي أن أخبركم بأنني تسلمت خطابكم الودي، وفهمت جميع محتواه، وقد رأيت بخاصة أنكم كلفتم الكخيا باشا القاهرة بمسئولية قيادة محمل الحجيج الإسلامي وأني لأحيي هذا الإجراء.

وأنتم تقولون لي أنكم عازمون على تشجيع الحجاج المسلمين على زيارة بيت الله، وأنهم يطلبون ضمانات وحماية من جانبنا، وليس ثمة شك في أنهم سيلقون حماية بفاعلية، ولن يحول مخلوق قط دون أن يزوروا الكعبة المشرفة وكذلك قبر الرسول ﷺ والمولى عز وجل لم يأمر ببناء بيته المقدس إلا ليكون مثابة للمسلمين، وهكذا يستطيع كل كائن من كان أن يأتي ليؤدي فريضة الحج كالعادة ولا يخشى من أي سوء يمسه.

أما بخصوص التشجيع المطلوب بالنسبة لتجارة البن، فلتعلم أن تجار الحجاز لم يطمئنوا بعد اطمئناناً كافيا حول المضايقات التي اعتادوا من قبل على ملاقاتها من المماليك، وإذا ما كنتم تعتزمون أن تعطوا لهذه التجارة كل الأزدهار الذي هي جديرة به فينبغي اتخاذ التدابير الكفيلة بتهدئتهم، وعرفوهم بقيمة الرسوم التي تفرضونها على البن والبضائع الأخرى، وإذا ما قمتم بهذه المبادرة فإنكم سوف ترونهم يبادرون في جم غفير، وإلا فإن الخوف من أن يتعرضوا للمتاعب في معاملاتهم التجارية سوف يحول دون ذهابهم لمصر وأما ما تقولونه بخصوص البدو الذين قد يتعرضون للحجاج المسلمين بالأذى، فإن هذا لن يحدث أبدا بعون الله وبفضل حمايتكم الوطيدة.

تحية سلام على من اتبع سبيل التسليم»(٧).

الوثيقة الثالثة

وهي رسالة موجهة باسم مشايخ وأعيان القاهرة إلى شريف مكة، بإيعاز من بونابرت، والنص العربي مفقود وإن كانت هناك ترجمة رسمية فرنسية له وردت في صدر العدد السادس من صحيفة «الكوريه دى ليجبت» كما ورد النص الفرنسي في مصادر ومراجع أخرى متنوعة، فمن ذلك الوثائق المنشورة تحت عنوان «الإسلام وبونابرت» وجاء أيضا في موسوعة «التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية على

مصر» - بالفرنسية - وجاء في هذا الكتاب تنويه بالرسالة التي اعتبرت نصا نادرا سواء من حيث أسلوبها ذى الطابع الديني أو من حيث الدلالة التاريخية.

وأورد جان جاك مارسل النص نفسه في كتابه العجيب «حكايات الشيخ المهدي» وأكد فيه أن الذي كتب الرسالة الشيخ محمد المهدي (الكبير) وذكر مارسل أنه يحتفظ بالنص الذي بخط الشيخ المهدي ونص الرسالة يقول على لسان مشايخ وأعيان القاهرة:

«بعد تضرعاتنا الحارة إلى الله التي تلهج بها ألسنتنا دائما أبداً ليحفظ مولانا أمير المؤمنين، والتاج الملكي للذرية الهاشمية، وسليل النبي ﷺ الشريف غالب سلطان مكة حفظه الله ليرمقه برعايته إلى أعلى مراتب المجد ويجنبه أي سوء تأتي به الأيام في تعاقب الليل والنهار، لما اكتسبه من بركات جده الكريم، وهو خير الشافعين.

نتشرف بإبلاغ مولانا الذي لا يكف أبدا بعبقريته عن رعاية مصالح الدين والمؤمنين والسادة آل عبدمناف أحد مشاهير أجدادنا أوليائنا الشرفاء وعلماء الإسلام في مكة والقضاة والأئمة الخطباء وعموم تجار وموظفي الحكومة في المدينة المقدسة أن اليوم السابع من شهر صفر الذي كان يوافق يوم السبت أقبل الجيش الفرنسي على أراضي الجيزة على ضفاف النيل الغربية وشن في نفس اليوم هجوما على المماليك. استمرت المعركة فيه حوالي ساعتين، وكانت عاقبتها وخيمة على المماليك الذين اضطروا للفرار مع غروب الشمس، تاركين عددا كبيرا من جنودهم في ساحة القتال، وفي صباح اليوم التالي توجه وفد من علماء الشريعة وأعيان القاهرة إلى الجيزة طالبين الحماية والرعاية للمصريين ماعدا المماليك وأتباعهم، واستجاب القائد العام إلى طلبهم هذا. ثم طلب الوفد أن تلقى كالمعتاد خطبة الجمعة التي تعود الأئمة الخطباء إلقاءها في المساجد يوم الجمعة عند صلاة الظهر، متضمنة الدعاء لصاحب العظمة السلطانية، فوافق القائد العام على أن تلقى هذه الخطب كما كانت وأضاف أنه من أخلص أصدقاء السلطان العثماني وأنه يحب جميع الموالين له ويعتبر أعداء السلطان أعداء له شخصيا.

وأمر في الحال أن تفتح أبواب الجوامع للمصلين لأداء الشعائر الدينية والأذان وتلاوة القرآن بكل حرية في مدينة القاهرة كالمعتاد.

وتكرم أيضا بإبلاغ الوفد أنه يسلم في قرارة نفسه بأن الحقيقة التي لا زاغ فيها هي أن لا إله إلا الله وأن معظم الفرنسين يكنون لنبينا والقرآن الكريم أعظم تبجيل، وأكثرهم مقتنعون بسيادة الإسلام على جميع الأديان الأخرى، ودلل القائد العام على قوله هذا بإطلاق سراح جميع الأسرى المسلمين الذين وجدهم في جزيرة مالطة بعد الاستيلاء عليها، وهدم الكنائس المسيحية والصلبان في جميع البلاد التي استولى عليها وخاصة في مدينة البندقية، حيث أحبط كل المكائد التي كان يتعرض لها المسلمون، وخلع بابا المسيحيين في روما، الذي كان يحل قتل المؤمنين، هذا العدو الأزلي للإسلام الذي كان يدخل في روع المسيحيين أن الله يكافىء على إهدار دماء المؤمنين الحقيقيين. إن هذا العدو لم يعد له وجود، وقد استراح منه المسلمون برعاية الله العلي القدير.

وعندما عاد الحجاج من مكة اقتربوا من القاهرة ذهب القائد العام بنفسه لملاقاتهم في مديرية الشرقية بعد سماع الأخبار بأن بعض الأعراب اللصوص والمجرمين قد سلبوهم متاعهم وخيراتهم، فاستقبلهم الجنود الفرنسيون وزودوا من بقي منهم على قيد الحياة بالخيول والطعام والزاد، وأسعفوا الجياع والعطاش.

وكان القائد العام قبل ذهابه إلى الشرقية قد كتب إلى قافلة الحجاج يطلب منها العودة رأسا إلى القاهرة حيث تجد أحسن استقبال، ولكن للأسف هذه الخطابات لم تصل إلى رجال القافلة الذين لاقوا مصيرهم المحتوم.

افتتحت قناة القاهرة (الخليج المصري) هذا العام باحتفالات غير عادية إرضاء للمؤمنين دون شك، وتبديدا لمخاوفهم وهمومهم.

وأجرى القائد (العام) توزيع مبالغ كبيرة من المال على سبيل الصدقة على الفقراء والمعوزين، وأقام وليمة كبيرة تكريما لأعيان البلد، كذلك أنفق أموالا كثيرة على الاحتفال بمولد النبي سيد المرسلين، وأقيمت احتفالات شيقة بهرت أنظار المؤمنين.

إن لله وإنا إليه راجعون – يجب الايخفى عليكم أن القائد أبدى رغبة صادقة في تعيين أمير للحج واتخاذ جميع الإجراءات التي تسبق رحيل قافلة الحجاج، وكان من رأينا معه أن يسند شرف هذه المهمة إلى السيد المحترم الأمير مصطفى أغا وهو من

رجال صاحب السعادة أبو بكر باشا والي القاهرة، ونحن نرجو أن يلقى هذا الاختيار وقعا حسنا من الباب العالي تأكيداً لحق من أعز الحقوق على قلبه.

لذلك فقد أضفى هذا الإجراء البهجة والسرور وأدخل الطمأنينة على قلوب جميع المؤمنين.

يبدي القائد العام للجيش الفرنسي نشاطاً كبيراً وإخلاصاً عظيماً لمصالح الحرمين ويتفقد كل ما يلزم عمله بشأن رحلة قافلة الحجاج هذا هو ما أوصانا به لتكونوا على علم، باعتبارنا شهود عيان بالعناية الفائقة التي يخص بها هذا الأمر المهم لكي تعملوا ما ترونه مناسبا من جانبكم.

السلام وألف سلام على هذا الرسول المجيد الذي يعلن الحقيقة على العالمين وقد وهبه الله كل الفضائل والشمائل. سلام أيضا على آله وصحبه في رسالته السماوية.

عمل بالقاهرة في ٢٠ من ربيع الأول سنة ١٢١٣هـ وقد ذيل بتوقيعات عديدة جدا»[٨].

الوثيقة الرابعة

وهي نص رسالة بعث بها الشريف غالب إلى بونابرت في ٣٠ من ذى القعدة من سنة ١٢١٣هـ (الثامن من فلوريال، العام السابع).

ومن البديهي أن هذه الوثيقة كتبت باللغة العربية إلا أن أصلها هذا مفقود، ولكن هناك ترجمة فرنسية رسمية لها، ووردت في مجموعة «الإسلام وبونابرت»، هي التي تنقل هنا للغة العربية:

«من طرف الشريف غالب بن الشريف (مساعد) أمير مكة المكرمة، إلى دعامة أساطين الأمبراطورية الفرنساوية، المعضد بأعلى مراتب التعضيد، صديقنا الكبير بونابرت، قائد الجيوش الفرنساوية، والجامع لكل ألوان الرفعة والرفاهية.

بعد الدعاء الذي ما نفتأ نؤديه من أجل رقيكم، فإن لنا الشرف بأن نبلغكم بأننا تسلمنا خطابكم الشريف الذي أرسلتموه لنا، وقد فهمنا كامل محتواه، وعلمنا منه بالرسوم التي ستؤدى عن البضائع القادمة عن طريق البحر الأحمر وكذلك

البضائع التي سمحتم بأن يعفى منها ٥٠٠ شحنة من الرسوم. وهذ الاستثناء المبارك لصالحنا هو برهان جديد على ثقتكم في صداقتنا وسنجازي هذه الثقة بإخلاص يتضاعف ولا ينقطع.

ونحن، تلبية لرغبتكم التي أعربتم عنها في مناسبات مؤكدة، قمنا بإرسال الخطابات الثلاثة التي بعثتموها عن طريقنا، الأولى للسلطان حيدر طيبو Hyder Typoo، والثانية لإمام مسقط، والثالثة للقائم بالأعمال من قبلكم في مخا، ولنا أن نرجو بأن تصل إليكم الردود بعون الرحمن في أمد قريب.

وفي نيتنا أن نقوم بكل ما في طاقتنا لكي نوطد صلاتنا التجارية مع مصر، ولكي نقنع تجارنا بالثقة وباليقين المنوطين بما قلتموه، والسلام والتفاهم المتبادل الذي يسود بيننا، والذي لن يعكره شيء قط بعون الله.

وقد بددت عودة مبعوثنا (الذي وصل إلى هنا في السابع من هذا الشهر) كل شك كانت قد أثارته شائعات كاذبة مضللة، انتشرت بين تجار بلادنا عن عدم ضمان استقرار المضاربات وبالخصوص فإن خطاب وزيركم الميمون، وما بذله من اهتمام بأبناء بلادنا».

وكان للعناية التي تفضل بتكريسها لضمان نقل بضائعهم أثر بالغ القوة في أذهان التجار، الذين قاموا على الفور بإرسال خمس سفن بعضها محمل لحسابنا، كما ستعاينون وفق الحالات.

ونحن نرجو أن تشملوا هذه البضائع بحمايتكم الشخصية وأن تصاحبها قواتكم من السويس حتى القاهرة، وأن تصدروا الأوامر لمراقبة سعر النقل الذي يتم بواسطة الأعراب، وبذا فإن الحماية والرعاية نتيجتها الإسهام في مضاعفة علاقتنا التجارية. وتستطيعون أن تعولوا على تبادل تام لكل المتطلبات التي تريدونها من ناحيتنا، فليبارك المولى على الدوام مساعيكم الطيبة حيالنا وليحفظ لكم حياتكم إن شاء الله.

ملحوظة: نرسل مع هذا بيان المبالغ المعتاد إرسالها إلينا من مصر في موسم الحج في ٢٣ من ذى القعدة من سنة ١٢١٣هـ (٩ فلوريال من السنة السابعة)(٩).

الوثيقة الخامسة

وهي رسالة بعث بها الشريف غالب إلى بوسييلج Poussielgue وهو رجل اقتصاد، عرفنا شيئا من أخباره في القسم الأول من هذه الدراسة التي تضمنت بدورها رسالة من الشريف غالب إلى بوسييلج هذا الذي عرفناه أنه كان «مراقبا لنفقات الجيش وعهد إليه نابليون بإدارة الشؤون المالية، وكان يثنى عليه لكنه غضب عليه بعد عودته إلى فرنسا لما اطلع على رسائله إلى حكومة الديركتوار انتقد فيها سياسته، ولما عاد إلى فرنسا أهمله نابليون:

وهو يذكر في رسائل الشريف غالب وفي «عجائب الآثار» للجبرتي تحت اسم «بوسيلك» ويوصف بأنه «مدير الحدود العامة بمصر».

والوثيقة المنشورة قبلا كانت باللغة العربية، وقد طبعها الفرنسيون وألصقوها بالأسواق كما ذكر الجبرتي، أما الرسالة التي تنشر اليوم فإن نصها العربي مفقود، وتوجد منها ترجمة للفرنسية نشرتها «الكوربيه دى ليجبت» في صدر العدد رقم ٣٥ (١٩ ترميدور من السنة السابعة - ٢٩ من ذي الحجة سنة ١٢١٣هـ) ونص الرسالة:

«يا أمير، أعز الأمراء وأشرفهم، يا قدوة معاصريه، يا ذا الأعمال الصالحة وصديقنا المخلص الحقيقي وزير المالية بوسييلج الذي بحكمته يذلل جميع الصعوبات التي تواجه إدارته بعد التسبيح لله عز وجل والسؤال عن صحتكم، نعلمكم بأن خطابكم وصلنا، وعلمنا مضمونه، وقد فحصناه جيدا، وفهمنا الأسباب التي أبديتموها بشأن قافلة مكة المكرمة ونحمد الله على ذلك.

لقد أفهمتمونا في خطابكم أن رعايانا قد أختلطوا بأعدائكم ولكن ليكن في علمكم أنه ما من أحد ممن يأتمرون بسلطتنا قد تجاسر أبداً على إقامة أية علاقة مع هؤلاء الذين تذكرونهم في رسالتكم، ويجوز أن بعض عرب الحدود هم الذين حاربوا ضدكم.

ونفيدكم أيضا أن سفننا قد ألقت مراسيها في السويس ويمكن استخدامها في شحن الكسوة الشريفة، والأبسطة المخصصة لبيت الله في مكة, ويمكنكم تسليم هذه

الوديعة الثمينة لوكيلنا محمد بن الحسين الذي نثق به كل الثقة، وهو الذي سلمكم رسالتنا هذه، وسوف يحضرها إلى هنا بإذن الله.

أعرفكم أيضا بأن لدينا سفينة بثلاثة صواري وأخرى بها اثنان، الأولى اسمها فتح الله الباري ومزودة بـ ٣٢ مدفعا والثانية اسمها فيض الله وبها ١٤ مدفعا.

الشريف السيد محمد عقيل وهو أحد أبناء عمومتنا يمتلك أيضا مركبتين إحداهما بثلاثة صواري، ومركب عبيد لها صاريان، ولما كنا نرسل عادة في كل سنة إلى شواطىء البلاد الهندية سفنا محملة ببضائع من الحجاز لمبادلتها ببضائع هندية، نطلب منكم أربعة جوازات سفر حتى لا تضايقها السفن الفرنسية والتي قد تلتقي بها في مياه البحار الهندية أو الحجازية ولا في ذهابها ولا في إيابها.

عندما تصلنا هذه الجوازات سنرسل فورا بإذن الله هذا الأسطول محملا بأندر منتجات الحجاز إلى شواطىء وموانى الهند التي نمتلكها، وستظل هذه الجوازات في أيدي قباطنة مراكبنا. أرسلوها لنا في أسرع وقت ممكن لأن المراكب مستعدة للإبحار. هذا كل ما عندنا لنقوله لكم، ونرجو ألا تنقطع مراسلاتنا المتبادلة صلوات الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين»(١٠).

هذا كل ما تيسر لنا جمعه - بعون المولى عز وجل - وقد راعينا في ذلك الدقة وعدم إضافة شيء في الترجمة اللهم إلا ما تطلبه الأسلوب، وهناك وثائق كانت في الأصل بالعربية لكن أصولها ضاعت، ولم تبق إلا الترجمات الفرنسية وهي التي اعتمدنا عليها في محاولة تيسير النص باللغة العربية لهذه الوثائق ذات القيمة التاريخية النادرة.

هوامش البحث:

١) راجع القسم الأول من هذه الدراسة في مجلة «الدارة» العدد الثالث من السنة السادسة.

٢) الجبرتي: عجائب الآثار (القاهرة ١٣٩٧هـ) جـ ٤ ص ٢٦٢.

٣) انظر دراسة لنا بعنوان: حول جريدة التنبيه ونشأة الصحافة العربية في مصر في مجلة «الكاتب» القاهرية سنة ١٩٧٧م.

٤) صحف بونـابرت في مصر (القاهـرة ١٩٧١) المجلد الأول: كورييـه دى ليجبت، واستعنا بها في عدد من المواضع.

٥) J.J. Marcel: Contes du Cheykh el-Mahdi (باريس ١٨٣٥) ص ٧٥-٨٥.

وراجع دراستنا: حكايات الشيخ المهدي في مجلة «فصول» (القاهرة ١٩٩١م).

٦) كـورييه دى ليجبت، العـدد ٢٤، ١٧ نيفـوز من السنة السـابقـة (١٧٩٨م) نقلا عن تـرجمة البستاني.

٧) المرجع السابق، ص ٨٨ وانظر النص الفـرنسي في مجموعة: Islam et Bonaparte الجزء الثاني ص ٩٠ وقمنا بترجمة النص عن الفرنسية.

٨) كورييه دى ليجبت، العدد السادس، وتأتي في أكثر من مرجع فمن ذلك:

- موسـوعة التاريخ العلمي والعسكـري للحملة الفرنسيـة على مصر (بالفرنسيـة) - باريس ١٨٣٠-١٨٣٦م المجلد الرابع، (تأليف: لوي ريبو) ص ٨١ وما بعدها.
- حكـايات الشيخ المهـدي (بـالفـرنسية) الجزء الأول ص ٧٥ ومـا بعـدها (طبعـة بـاريس ١٨٣٥م) وأوردنا هنا ترجمة البستاني مع مطابقتها على النص الفرنسي.

٩) نقلا عن الجزء الثاني من مجموعة: الإسلام وبونابرت ص ٩٥ وما بعدها (بالفرنسية).

١٠) كورييه دى ليجبت، العدد السادس، ترجمة صلاح الدين البستاني.